أول دستور طبي (*)

الدكتور
عبد اللطيف البدري

في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، قرر طبيب سومري مجهول الاسم تسجيل بعض ما يعرفه من وصفات طبية قيمة لغرض افادة زملائه وتلامذته . فكتب على لوحة طينية طولها ٢٠ سم وعرضها ١٠ سم وبخط مسماري دقيق ما ينيف على اثنتي عشرة وصفة من وصفاته المفضلة

لقد اكتشفت هذه اللوحة في التنقيبات التي اجرتها بعثة متحف جامعة فلادلفيا في اطلال (نيبور) في اوائل هذا القرن ، وهي لاشك اقدم ما عرف عن أي دستور طبي حتى الآن اذ انها كتبت قبل اكثر من اربعة الاف سنة .

عرف من هذه اللوحة ان الطبيب السومري قد التجأ الى المصادر المعدنيةوالحيوانية والنباتية في تحضير ادويته ، وان المعدن المفضل كان ملح الطعام والملح الصخري (نترات البوتاسيوم) . اما من المملكة الحيوانية فقد استعمل الحليب وجلد الثعبان وترس السلحفاة . غير أن جل ّ ادويته كانت نباتية المصدر ، فقد استعمل من الاعشاب السنا والآس والحلقيت والسعتر ومن الاشجار الصفصاف والاجاص والتين والتنوب والتمر فحضر العقاقير من بذورها وجذورها واغصانها ولحائها وصمغها ، كما اختزنها مثلما تختزن هذه المواد في الوقت الحاضر اما بصفتها الصلبة او على هيئة مسحوق. لقد وصفت هذه العقاقير للمرضى على هيئة مراهم او محاليل للاستعمال الخارجي او على هيئة سوائل للاستعمال الداخلي .

كانت طريقة صنع المراهم هو سحن عقار او اكثر وسكب النبيذ عليه ثم اضافة الزيوت النباتية الاعتيادية او زيت السدر اليه عدا وصفة واحدة كان العقار فيها مسحوق طين النهر المعجون بالماء والعسل وزيت البحر (؟) بدلا من الزيت النباتي .

(*) س . ن . كريمر ، الحياة بدأت في سومر ، الناشرون توماس وهدسون لندن ١٩٦٢

اما المنقوعات من الوصفات فقد كان صنعها اكثر تعقيداً ، فقد جاءت طريقة الاستخلاص بالغلي في ثـــلاث وصفات من أجل الحصول على المادة الفعالة في الدواء ، وذلك بوضع العقار في الماء وتسخينه ثم اضافة شيء من القلويات والملح لاستخلاص اكبر كمية من هذه المادة . تعزل الشوائب العضوية من المنقوع بترشيحه ويعالج العضو المريض به اما برشه عليه او بالغسل به ، وقد يتبع ذلك دهن الجزء المصاب باحدى الدهونات او بعقار آخر .

اما في العقاقير التي تؤخذ داخلا فغالباً ما يكون المذيب احد انواع الجعة ذلك لاكساب الدواء طعماً مقبولا. لقد استعمل الحليب بدل الجعة في احدى المذكورة ، وفي الاخرى زيت النهر (؟) .

يمكن الحكم من هذه اللوحة وحدها ان علم العقاقير السومري قطع شوطاً ملحوظاً في التقدم لان ما في اللوحة يقتضي اطلاعاً بعمليات كيمياوية متعددة واساليب اجرائها . ففي اكثر من حالة يوصي الطبيب بتنقية العقار قبل سحنه وهذا يعني القيام بأجراءات متعددة قبل السحن . فمسحوق احد القلويات في احدى الوصفات كان الرماد القلوي الذي يستحضر من حرق عدد من نباتات فصيلة (رجل الاوز) الغنية بالصودا . ان هذا الرماد كان شائع الاستعمال في القرن السابع قبل الميلاد ، وكذلك في العصور الوسطى في صناعة الزجاج . ان المهم في هذا الرماد من الوجهة الكيمياوية هو انه قد مزج في اثنتين من وصفات هذه اللوحة مع مواد تحوي قدراً كبيراً من الشحوم الطبيعية وهذا يعني ان قدراً كبيراً من الناتج النهائي للمستحضر هو الصابون ، وقد كانت هاتان الوصفتان للاستعمال الخارجي .

هنالك مادة اخرى استعملها الطبيب السومري تدل على اطلاع في الكيمياء ، هذه المادة هي الملح الصخري ، وهو ما تسميه العامة (بالشورة) التي تستعمل في تحضير البارود . لقد استُدل فيما بعد من لوحات اخرى ان هذه المادة وجدت على الجدران الداخلية للسراديب او المباني القريبة من مجاري المياه الآسنة التي تكثر فيها المواد النايتروجينية كالبول وما شاكله . وان ما يكشط من سطوح هذه الجدران يكون

في العادة مزيجاً من املاح عديدة يمكن فصل الملح الصخرى منها بعددة طرق احدها التبلور الجزئي وهو اذابتها في الماء وتركها في اناء مكشوف يُسهِّل التبخر الذي يزيد تركيز المذابات في السائل فتبدأ عند ذلك بالتبلور . تختلف المذابات في درجة تبلورها في تركيز معين لذا نجح الطبيب السومري (لمعرفته بهذه الحقيقة) في فصل الاملاح المذابة عن بعضها بازالة وعزل ما يتبلور بالتدريج اثناء التبخر ، وهكذا امكنه الحصول على نقاوة عالية لدرجة مكنته من فصل كلوريد البوتاسيوم عن نترات البوتاسيوم .

هناك طريقة اخرى لتحضير الملح الصخري (نترات البوتاسيوم) استعملها الطبيب السومري وما زالت مستعملة الان في بعض الاماكن في مصر والهند وهي مزج حجر الكلس (الجير الحي) مع المواد العضوية المتفسخة للحصول على نترات الكالسيوم ثم ترشيح السائل وغليه مع رماد الخشب الحاوي على قدر كبير من كاربونات البوتاسيوم ومن ثم يعاد ترشيحه قبل تعريضه لعملية البلورة بالتبخر .

هناك امر مخيب للظن في هذه اللوحة الطبية هو عدم ذكر كيفية استعمال الدواء ، فلم يُذكر المرض الذي ينفع فيه ولا مقدار النفع في مرض ما ، ولكن يتضح في بعض الوصفات الحكمة من استعمال الدواء فلقد استعمل الملح بما ينفع كمعقم واستعمل الملح الصخري بما ينفع كقابض .

ومما تجدر الاشارة اليه أيضاً ان الطبيب السومري الذ ي كتب هذه اللوحة لم يتطرق الا الى الامور المادية فقط ولم يرد فيها شيء عن السحر والتعاويذ ، مثلما لم يذكر فيها الالهة او الشياطين . ان خلو اللوحة من هذه لا يعني بأي حال بطلان العقيدة بها في ذلك الوقت او ان الروحانيات لم تستعمل في الطب والعلاج ، بل قد يكون العكس هو الصحيح اذ ان السومريين ومن بعدهم البابليين كانوا يظنون ان الكثير من الامراض مسببة من دخول الارواح الضارة الى الجسم .

ان اهمية هذه اللوحة تكمن في انها اقدم دستور طبي مكتوب عرف في الوقت الحاضر ، وان ما جاء به اقتصر على الامور المادية فقط ، وخالياً تماماً من الالغاز واللاعقلانيات .

كما ان هناك شيئاً اخر يلفت النظر فيها هو انها كتبت في بلد كانت الزراعة المتطورة عماد حضارته واقتصاده ، وان دليل الزراعة التي عثر عليه لم يكتب الا بعد كتابة الدستور الطبي بمئات السنين .

عبداللطيف البدري